المحاضرة05: جماعة الرابطة القلمية:

تعتبر الرابطة القلمية من الحركات التجديدية التي سجّلت حضورها في النقد العربي الحديث، أسّسها عرب المهجر الشمالي في نيويورك سنة 1920م مكوّنة من جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، نسيب عريضة... بحيث دعوا إلى أدب جديد يلبّي حاجات العصر بل واستعانوا بالخيال على بناء عالم مثالي لعلّه يحقّق لهم ما افتقدوه في وطنهم من تناسق وتناغم في الحياة.

من خصائص هذه الجماعة تجسيدها للنزعة الإنسانية وخاصّة الرومانسية، وكذا البعد عن التكلّف والتعقيد. أمّا من الناحية الفنية فقد استعملت عناصر الطبيعة لصياغة التجربة الشعرية مع الدعوة إلى قيم الحقّ والخير والجمال في نزعة تأملية تتقصّى جوهر الأشياء، ميخائيل نعيمة أحد أفراد هذه الرابطة، كانت لديه نظرة خاصّة إلى الأدب والنقد حيث نشر مجموعة من المقالات لخّص فيها وجهات نظره ما بين سنة 1913 وسنة 1922 قبل أن يجمعها في كتاب سمّاه الغربال حيث أصدره سنة 1923.

1/ أدب المهجر وأهم رواده:

بدأت قصة أدباء المهجر أو ما يعرف بالمغتربين، "منذ أواخر القرن التاسع عشر شرع الشباب من سوريا ولبنان ينزحون إلى القارة الأمريكية هربا من جور الأتراك. وانتجاعا للرزق وحبا للمغامرة،... وكان من بينهم قلوب متوثبة للحرية. وفي قلوبهم أفاق رحاب من الفكر النير والخيال الخصيب. أولئك كانوا من الرعيل المثقف الواعي". وتشير المعاجم الأدبية حول مصطلح أدب المهجر هو أنّ "الأصل في الأدب أن يبتدعه أهله. وهم في بلدهم ووطنهم. غير أنّ العصر الحديث عرف جماعات قدر لها أن تعيش خارج وطنها. وتبدع فوق أرض غير أرضها، فقد جمعت بعض العرب الغربة في أرضهم فشكلوا ما يعرف بالجاليات، أطلق عليهم اسم المغتربين، أو المهاجرين. وصدر عنهم أدب يدعى بأدب المهجر، أو الأدب

المهجري. وهي ظاهرة جديدة في الأدب العربي المعاصر، وهو حصيلة إبداع أناس نزحوا عن وطنهم مكرهين".

أما أهم رواد الأدب المهجري من الذين أسسوها ونفخوا فيها الحياة وهم على التوالي: "أنشأها جبران، ونفخ فبها نعيمة من روحه وروادها بقية الشعراء والكتاب بعطر أنفاسهم"، ولقد حددهم محمد التنوجي في كتابه (المعجم المفصل في الادب) في قوله: "وقد لمعت في المهجر الشمالي أسماء جبران، ونعيمة، و أبي ماضي، ونسيب عريضة، ورشيد أيوب، وعبد المسيح حداد، وندرة حداد، والريحاني، ومسعود سماحة، ونعمة الحاج، وأغلبهم من أعضاء الرابطة القلمية، وضرب الشماليون في أكثر الفنون الأدبية، وشقوا طرقا وفنون جديدة، وكان نثرهم شعرا رائعا ساحرا، وكتبوا في القصة، فكانت أقاصيصهم ورواياتهم من أجود ما عرفه الأدب العربي في فن القصة، ونهج أغلبهم في آدابهم النهج الفلسفي، فقد تميّز أدب جبران ونعيمة وأبي ماضي والريحاني ونسيب عريضة بالنزعة الفلسفية" هؤلاء الرواد تميزوا عن غيرهم بطرح قضايا ومبادئ وأسس جديدة.

2/ أهداف جماعة الرابطة القلمية:

يذكر صاحب المعجم المفصل عن أدب الرابطة القلمية ما يلي: "ولدت فكرة (الرابطة القلمية) في (20 نيسان 1920) في المهجر الشمالي للولايات المتحدة الأمريكية (برئاسة جبران خليل جبران، ويعاونه ميخائيل نعيمة في إدارتها ومستشارا و(وليم كاتسفليس) خازنا، ومعم سبعة أعضاء يحملون اسم العمال وهم إيليا أبو ماضي، نسيب عريضة، عبد المسيح حداد، وديع باحوط، إلياس عطا الله، ولم يكن هؤلاء خيرة أدباء المهجر الشمالي، ولكنهم كانوا متقاربين في الميول الأدبية والذوق الفني، وفتح عبد المسيح حداد لهم جريدته (السائح) لينثروا فيها أزهارهم، وكانت السائح، تصدر عددا ممتازا في صدر كل عام، عاشت الرابطة القلمية إحدى عشر سنة، ثم تبعثر أعضاؤها عام 1931، فقد هجم الموت على جبران، ثم رشيد أيوب، ثم إلياس عطا الله ونسيب عريضة، ثم ندرة حداد، فالآخرين، وعاد نعيمة إلى قريته بلبنان، وتوقف السائح"، تميزوا بمنحاهم الفلسفي إلى جانب توجهه الرومانسي الوجداني، وذلك لكثرة قراءاتهم ومواكبتهم للجديد. أمّا أهداف الرابطة القلمية فهي كالتالي:

- رفع لواء التجديد في الأدب العربي شعرا ونثرا، وانتقاد الشعر القديم ومحاربة التقليد.
- تعميق صلة الأدب بالحياة، وتجسيد واقع الإنسان في تجربة كتابية ذات رؤية رومانسية وعاطفية.
- التحرر من الثنائية التقليدية (الشكل والمضمون).
- التنويع في القافية ومحاربة نموذج القصيدة العمودية.

وانطلاقا من الغايات المذكورة سابقا، أبدع شعراء المهجر الشمالي أيما إبداع، فقد لامسوا كل مناحي الأدب الشعرية والنثرية، وكتبوا في مواضيع جديدة بأساليب مغايرة، حيث أبدع جبران خليل جبران في الشعر الوجداني الذي يعالج قضايا ذات بعد إنساني، كما أبدع إيليا أبو ماضي في الشعر الرمزي الفلسفي، وخاض ميخائيل نعيمة بحر النقد واضعا مقاييس لم تكن موجودة سابقا. كما شاعت وانتشرت بقوة الفنون النثرية مثل الرواية والقصة وغيرهما.

3/ مواطن التجديد عند جماعة الرابطة القلمية:

تظهر مظاهر التجديد عند جماعة الرابطة القلمية من خلال التأثيرات الحديثة التي أدت إلى تجاوز البنية التقليدية القديمة للقصائد القديمة، وتبني صياغة جديدة، ومن أهم مواطن التجديد لدى هذه الجماعة نجد:

أ/ على مستوى الشكل:

-الحنين إلى الوطن والتغني بجماله والدفاع عن قضاياه.

-حب الطبيعة ومناجاتها والتغني بجمالها، وتوظيف عناصرها كمعادل موضوعي لشعور الغربة والشوق.

-التأمل في النفس الإنسانية والتعمق فيها والدقة في تصويرها بغية كشف أسرار الحياة.

-بروز النزعة الإنسانية الشاملة في كتاباتهم، مع الدعوة إلى المثل العليا والمبادئ السامية.

-سلاسة المعاني ورقتها وانسيابها في أعماق النفس، ذلك ما جسده أسلوب الهمس بدل الخطابة المباشرة.

ب/ على مستوى المضمون:

- استعمال الألفاظ السهلة والتراكيب البسيطة المعبرة عن روح العصر، مع جمال التصوير ودقة الوصف.
- الدعوة إلى الوحدتين العضوية والموضوعية، لتشكيل وتجسيدهما في كتاباتهم.
- العناية بالصورة الفنيّة في تشخيص المعاني وتجسيدها، لتسهيل التأثير في المتلقي.
- التمرد على الأوزان القديمة والتنويع في القافية، متأثرين في ذلك بالموشحات الاندلسية.
- توظيف أصوات وشخصيات متعددة في القصيدة الواحدة، وذلك لإبانة عن المكنونات النفسية وتأملات الحياة والوجود.

4/ النقد في كتاب الغربال لميخائيل نعيمة:

يعد كتاب الغربال من الكتب المهم في النقد العربي الحديث، وهو الأثر النقدي الثاني في المدرسة النقدية التأثرية، بعد كتاب الديوان من حيث التأثير في الحركة النقدية الأدبية الحديثة والمعاصرة، وهو عبارة عن مجموعة من المقالات النقدية التي نشرها ميخائيل نعيمة في الصحف أو كتبها كمقدمات لبعض مؤلفاته، وهذا لا ينقص من قيمة الكتاب كما يشير إلى ذلك محمد مندور، فقد جرت العادة أن يكون التأليف في تلك الفترة على تلك الشاكلة، والمتصفح للكتابين (الديوان والغربال) يدرك بوضوح أنهما رايتان رفعتا في فترة متقاربة في كل من بلاد مصر والمهجر، وكانت الغاية الرئيسية تحطيم المقاييس النقدية القديمة، والدعوة إلى مقاييس حديثة في فهم الأدب وتقويمه، وقد أدت الغاية المشتركة بين الكتابين بالعقاد إلى القول: " لو لم يكتب قلم نعيمة هذه الآراء التي تتمثل للقارئ في هذه الصفحات لوجب أن أكتبها أنا. فأما وقد كتبها وحمل عبئها فوجب على الأقل أن أكتب مقدمتها". يتضح من هذا القول وحدة الأهداف والغايات بين المؤلفين (الديوان والغربال).

ويضم الكتاب إحدى وعشرين مقالة، خصص بعضها للهجوم العنيف على الأدب العربي التقليدي والتحجر اللغوي، مثل ما جاء في مقالي "الحباحب" و"نقيق الضفادع"، ثمّ مقال "الزحافات والعلل" للهجوم على العروض التقليدي، كما تناولت بعض مقالاته بالنقد التطبيقي بعض الدواوين التي ظهرت في تلك الفترة مثل "القرويات" و "الريحاني في عالم الشعر" و "ابتسامات ودموع" وغيرها.

ومما أورده ميخائيل نعيمة في "نقيق الضفادع" قوله:" من أكبر الأوهام التي يؤخذ بها ضفادع الأدب وهمهم أن تسيير الأدب منوط بهم (...) وليس للقوانين التي ربطت بها الحياة أجزاءها من محل من الإعراب في قاموسهم (...) لو تبصر ضفادع اللغة العربية يوما تاريخ لغتهم لوجدوا أنّ (...) اللغة التي نتفاهم بها اليوم في مجلاتنا وجرائدنا ومن على منابرنا هي غير لغة مضر وتميم وحمير وقريش".

فنعيمة يرى أنّ اللغة مظهر من مظاهر الحياة وهي لا تخضع إلا لقوانين هذه الحياة، ويعيب على القدماء مبالغتهم في تقديس الألفاظ القديمة والأساليب التقليدية، ونبذهم ما سوى ذلك، وهي نظرة أدت باللغة إلى الجمود والركود، كما يسخر نعيمة من النقاد المحافظين الذين اقتصرت غايتهم على البحث عما يخالف أذواقهم لينعتوه بالهشاشة والرداءة "فهم يتوسدون القواميس ويتلون عليها صلواتهم، ويحرقون أمامها بخور قلوبهم، وزيوت أدمغتهم، وكل غايتهم في الحياة أن يقعوا في قصيدة أو مقالة على كلمة أو تركيب لم تألفها أذواقهم ولا رضيت عنها قواميسهم".

أ/ المنهج النقدي في الغربال وصفات الناقد:

يتضح من خلال حديث نعيمة عن الغربلة، أنّه لم يتخذ منهجا معينا في كتابه بل كان منهجه تأثريا ذاتيا، ذلك ما عبر عنه في قوله:" إنّ لكل ناقد غربااله، لكل موازينه ومقاييسه، وهذه الموازين والمقاييس ليست مسجلة لا في السماء ولا في الأرض، ولا قوة تدعمها وتظهرها قوة صادقة سوى قوة الناقد نفسه". وهذه القوة جعلها نعيمة تتجسد من خلال الصفات والشروط الواجب توفرها في الناقد، ومن أبرزها:

- الإخلاص في النية.
- المحبة لمهنة النقد.
- الغيرة على موضوعه.
- الذوق الدقيق.
- الشعور الرقيق.
- الفكر المتيقظ.
- البيان الحسن.

ويشدد نعيمة على مهمة الناقد ليست نقد الأشخاص بل نقد أعمالهم الأدبية، حيث يقول: "إن مهمة الناقد الغربلة، لكنها ليست غربلة الناس، بل غربلة ما يدونه قسم من الناس من أفكار وشعور وميول (...) هي غربلة الآثار الأدبية لا غربلة أصحابها". فهو يرى بأنّ الناقد الذي لا يميز بين شخصية المنقود وبين آثارها الأدبية ليس أهلا لأن يحمل مبادئ الغربال، فهو لا يصلح أن يكون ناقدا. كما يقرر أنّ النقاد كالشعراء طبقات وأصناف، وأن الناقد المبدع هو الذي يضطلع بمهمة الكشف عن الجديد في الآثار الأدبية التي ينقدها، وعن الجواهر التي لم يهتد إليها أحد، حتى لا يكون عمله نسخا لما نسجه السابقون.

يتضح مما سبق أنّ المنهج النقدي عند ميخائيل نعيمة يتجاوز التفسير والتقييم، إلى الإبداع والإتيان بالجديد الذي لم يهتد إليه شخص من قبل، ذلك ما يفصح عليه نعيمة في معرض حديثه عن الناقد: "هو مبدع عندما يرفع النقاب في أثر ينقده عن جوهر لم يهتد إليه أحد، حتى صاحب الأثر نفسه".

ب/ المقاييس النقدية:

رغم أنّ المنهج الذي يتبعه ميخائيل نعيمة هو التأثري الذاتي، حيث أنّ لكل ناقد مقاييسه ومعاييره التي يعتمدها في نقده للآثار الأدبية على اختلاف أنواعها، إلّا أنّ ذلك لم يمنع نعيمة من وضع مقاييس عامة يمكن أن يشترك فيها جميع النقاد، وهذه المقاييس هي ما أدرجها في مقاله "المقاييس الأدبية"، والتي سماها ب "الحاجات الأدبية"، تلك التي " كانت تنبع عن الذات الفردية، التي أخذت تنفتح وتسعى إلى تأكيد وجودها في زمن أخذ الوعي القومي ينتشر فيه، فينعكس على الأفراد إحساسا قويا بذواتهم، ورغبة عارمة في تأكيد تلك الذوات (...) واستطاع الناقد الحساس ميخائيل نعيمة أن يتخذ من روحه بؤرة تتجمع فيها خصائص عصره الفنية الجديدة، واتخذ من هذه الحاجات مقاييس عامة للأدب".

كما لخص تلك الحاجات في أربعة عناصر وهي:

1- حاجاتنا إلى الإفصاح عن كل ما ينتابنا من العوامل النفسية من رجاء ويأس وفوز وفشل، وإيمان وشك، وحب وكره، وغير ذلك من الإنفعالات والتأثيرات.
2- حاجتنا إلى نور نهتدي به في الحياة وليس من نور نهتدي به سوى نور الحقيقة، حقيقة ما في نفسنا وحقيقة ما في العالم من حولنا.
3- حاجتنا إلى الجميل في كل شيء، ففي الروح عطش لا ينطفئ إلى الجمال وكل ما فيه من مظاهر الجمال، فإنا وإن تضاربت أذواقنا في تحديد الجميل والقبيح فإن هناك جمالا مطلقا لا يختلف فيه ذوقان.
4- حاجتنا إلى الموسيقى، ففي الروح ميل عجيب إلى الأصوات والألحان لا ندرك كنهه.

يتضح لنا من خلال ما سبق أنّ ميخائيل نعيمة قد طبق منهجا نقديا تأثريا ذاتيا، واضعا جملة من المعايير والمقاييس التي يمكن تطبيقها على المؤلفات الأدبية المعاصرة شعرا ونثرا، وهو بذلك يبدو متأثرا بالاتجاه التجديدي ورافضا كل الرفض للاتجاه الإحيائي.

وخلاصة القول أنّ الرابطة القلمية تمثلت التجديد بشكل أكبر وأوضح منه عند جماعة الديوان، هذه الأخيرة التي ظلت –رغم كل مظاهر التجديد ودعواتها الثائرة– متصلة بالتراث العربي القديم ومستحضرة له في محطات عديدة

مراجع المحاضرة:

- محمد التونجي، المعجم المفصل في الأدب.
- نادرة سراج، شعراء الرابطة القلمية.
- الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه.
- شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر.
- محمد مندور، النقد والنقاد المعاصرون.
- ميخائيل نعيمة، الغربال.